الإسهامات العلمية للشيخ محمد المصطفى بن عبد الله الدحاوي المعسكري

تقي الدين بوكعبر[1]؛ دحو فغرور[2]
1ـ جامعة أحمد بن بلة وهران 01
takieddine.boukaabar@gmail.com
2ـ جامعة أحمد بن بلة وهران 01
dahofaghrour@hotmail.com

تاريخ الإرسال:2019/02/10؛ تاريخ القبول:2019/03/10

The Scientific contributions of cheikh Mohammed Mustafa ben Abdullah Al – Dahawi

BOUKAABAR Takiedine; FAGHROUR Daho

Abstract: It is ironic that a book is famous and its owner is unknown, for Example The book of ''AL RIHELA AL KAMARIYA'' is one of the most famous books written for the history of the life of the bey Muhammad al kabir, But the writer Sheikh Mohammed Mustafa al- Dahawi his life are still full of mystery. Despite the fame of cheikh Mohammed Mustafa al- Dahawi and the importance of his historical writings in the knowledge of developments in the region during his lifetime, the researcher remains amazed by the darkness and opacity that surrounds the biography of his life..This article aims to shed light on the life of this sheikh, to present his most important works and to highlight their scientific and historical status.

Keywords: Mohamed al mostafa; Al rihleto al kamariya; Kitab al iktifa; Talkhisso al joman; El Bey Mohamed

الملخص: لقد ترك الكثير من علماء منطقة معسكر تراث، يعتبر من أهم مصادر دراسة تاريخ الجزائر خلال فترة التواجد التركي بها فلا يسع أي باحث في هذا الحقل أن يستغني عما كتبه الشيخ أبو راس أو ما كتبه الشيخ ابن سحنون مثلا، ورغم ذلك تبقى كثير من جوانب حياة هؤلاء الأعلام يكتنفها الغموض.

ومن نماذج هؤلاء الأعلام الذين ورغم أهمية ما كتبوه تبقى حياتهم مجهولة لدى الكثير، الشيخ محمد المصطفى الدحاوي صاحب كتاب الرحلة القمرية الشهيرة.

يهدف هذا المقال إلى تسليط الضوء على حياة هذا الشيخ والتعريف بأهم مؤلفاته وإبراز مكانتها العلمية والتاريخية.

الكلمات المفتاحية:

محمد المصطفى؛ الرحلة القمرية؛ كتاب الإكتفا ؛ تلخيص الجمان؛ الباي محمد الكبير.

مقدمة:

يمكن اعتبار فترة حكم الباي محمد الكبير فاتح وهران (1779م1797م) ومن بعده فترة حكم ابنه الباي عثمان (1797مـ 1800م) فترة فريدة في تاريخ بايلك الغرب، نظرا للأحداث الهامة التي عرفتها المنطقة خاصة فتح وهران الثاني سنة 1206هـ /1792م، إضافة إلى بروز أسماء علماء عدة أثروا الحياة الثقافية آنذاك بمؤلفات تعتبر خير شاهد على أحداث تلك الفترة المهمة في تاريخ الجزائر الحديث.

هذه المؤلفات التي تعكس روح المجتمع الجزائري آنذاك، تعكس علاقة المجتمع بالسلطة الحاكمة، تعكس رد فعل الجزائريين من تصرفات هؤلاء الحكام، تصرفات لطالما كان ينظر لها بعين الريبة والتوجس خيفة نظرا لوجود بوادر القطيعة بين السلطة وعموم الشعب، قطعة حاول العلماء ملأها من خلال لعب دور الوسيط بين الطرفين.

ولعل من العلماء المشهورين والمغمورين في نفس الوقت آنذاك الشيخ محمد المصطفى الدحاوي هذا الأخير الذي يمكن اعتباره لسان حال السلطة الناطق وقلمها السيال وسيفها الذي تضرب بها مخالفيها، ورغم هذه الأدوار الهامة التي لعبها الشيخ تبقى حياته وسيرته فضلا عن مؤلفاته ومشاركاته مجهولة لدى الكثيرين.

جاء هذا المقال الموسوم بـ: «الإسهامات العلمية للشيخ محمد المصطفى الدحاوي»، كمحاولة لتسليط الضوء أكثر حول الملامح الفكرية والثقافية لهذه الشخصية، وإبراز مكانته العلمية الهامة، وهذا من خلال محاولة الإجابة عن الإشكالات التالية: ما مدى الدور الذي لعبته السلطة في توجيه كتابات العلماء وبالخصوص الشيخ محمد المصطفى؟ وما هي القيمة الفعلية لكتاباته؟ وهل عكست هذه الكتابات تطلعات الجزائريين خاصة وأن المنطقة كانت تستعد لحدوث ثورات شعبية عارمة ضد السلطة الحاكمة؟.

1- ضبط اسمه مولده ونشأته:

أ ضبط اسمه:

لقد ضبط الشيخ محمد المصطفى الدحاوي اسمه في كتبه على النحو التالي: في كتابه الإكتفا في حكم جوائز الأمراء والخلفاء قال «المصطفى بن عبد الله الشهير بنسب الشيخ الولي عبد الرحمن بن علي المعروف بمرضعة جده زرفة» (الدحاوي، ب س: 01)، وفي كتابه الرحلة القمرية ذكر اسمه فقال: «محمد المصطفى بن عبد الله ابن عبد الرحمن المعروف بابن زرفة مرضعة جده» (الدحاوي، الرحلة القمرية في السيرة المحمدية، صفحة 03)، أما في كتابه تلخيص الجمان فذكر اسمه فقال: «محمد المصطفى ابن عبد الله ابن عبد الرحمن المضاف في النسب لمرضعة جده زرفة» (الدحاوي، ب س: 03).

من هده النصوص الثلاث يتضح أن اسمه هو محمد المصطفى بن عبد الله، طبعا لا يوجد اختلاف في طريقة ضبط الشيخ لاسمه في كتبه الثلاث، لكن الإشكال أنه لم يوضح قربه أو بعده عن جده الشيخ سيدي دحو أي كم حلقة بينه وبين جده سيدي دحو؟ حيث أنه لا يعلم لسيدي دحو ابن اسمه عبد الله.

ب ـ مولده ونشأته:

رغم شهرة الشيخ محمد المصطفى الدحاوي وأهمية كتاباته التاريخية في معرفة التطورات التي عرفتها المنطقة خلال فترة حياته، إلا أن الباحث يبقى متعجبا من الظلام والتعتيم الذي يخيم على سيرة هذا الرجل، فلا توجد أي إشارة معروفة تحدد لنا تاريخ ومكان ميلاده الدقيق، وإن كان يمكن التكهن بأن مولده كان بمسقط رأسه قرب ضريحه سلفه سيدي دحو لكن لا يمكن بأي حال من الأحوال معرفة تاريخ ميلاده الدقيق، كما أن الإحاطة ببعض تفاصيل حياته تبقى لحد الساعة مجهولة فلا يعلم مثلا من هو أبوه عبد الله، وكم بينه وبين سيدي دحو بن زرفة ولا يعرف من هي أمه، أشار ابن سحنون أنه كان له أخ وشارك معه في فتح وهران لكن لم يذكر اسمه ولا نشاطاته خلال الفتح، ويظهر من خلال أجازة الشيخ الجلالي لأحد طلبته أن أخ الشيخ محمد المصطفى الدحاوي. هو عبد القادر بن عبد الله الدحاوي حيث جاء في هذه الإجازة : «العالم النجيب الحاذق الأديب الزكي اللبيب الآخذ من كل علم نصيب السيد عبد القادر بن عبد الله الراشدي المعسكري أحد أولاد الشيخ البركة المزارة أبي زيد السيد عبد الرحمن المشهور بدحو» (انظر التعليق رقم 01).

ولا يعلم شيء عن حياته العائلية فلا يعلم من هي زوجته أو أزواجه وعدد أولاده ولا مصيرهم بعده، وإن كان أشار صاحب كتاب خطط مشرق المغرب أن من أربيته (انظر تعليق رقم 02) الذين هاجروا إلي مدينة وجدة السيد محمد بن عبد الله الدحاوي وهذا سنة 1311هـ/ في حدود 1893م، هذا الأخير الذي حلته بعض الوثائق والتقايد بـ «الفقيه الأرضى الشريف المرتضى»، توفي ما بين 1344هـ 1345هـ/ 1925مـ 1926م تاركا أربعة أولاد وهم السيد محمد الملقب ابن المصطفى والسيد محمد الملقب خير الدين والسيد دح والسيدة خيرة(المقري،2006: 64)

كما لا يعرف مساره التعليمي ولا مشايخه الذين حفظ عليهم القرآن ولا شك أنهم علماء أسرته سيدي دحو عملا بالعرف السائد آنذاك أن الولد يتعلم ويحفظ القرآن ومبادئ الدين على أقرب مقربيه والده أو أحد أقاربه.

هذا التعتيم منطلقه الشيخ محمد المصطفى الدحاوي نفسه ففي كل كتاباته المتوفرة لدينا لم يذكر شيئا عن نفسه ولا عن تكوينه ولا عن نشأته واكتفى بذكر اسمه محمد المصطفى بن عبد الله الدحاوي.

2- شيوخه وطلبته

أ - شيوخه:

لا شك أن الشيخ محمد المصطفى الدحاوي تتلمذ على مشايخ منطقته وربما رحل كما هي العادة إلى الأقطار المجاورة طلبا للزيادة في العلم، لكن بالرجوع إلى المصادر والمراجع المتاحة حول شخصيته يمكن التعرف على اسم ثلاث شيوخ من أشياخه فقط وهم:

- الشيخ المكي بن عيسى:

لا تُعلم ترجمة لهذا الشيخ غير ما ذكره تلميذه محمد المصطفى في رحلته فقد ذكره غير مرة بأوصاف تنم عن علمه الجم وتفوقه وتميزه بين أقرانه ومن ذلك وصفه له بقوله: «شيخنا الفقيه الفرضي النحوي اللغوي الشاعر العروضي آخر قضاة العدل أبو عبد الله السيد المكي بن عيسى» (الدحاوي، الرحلة: 22) ووصفة مرة ثانية فقال: «شيخنا العلامة الأبر الألمعي الأغر من بعدله في الأحكام يتأسى سيدي الحاج المكي بن عيسى» (الدحاوي، الرحلة: 62). ووصفه مرة أخرى فقال: «شيخنا العلامة الفقيه النحوي الشاعر العدل النزيه قاضي المحلة المنصورة ومجدد نظام الشريعة المبرورة من بأدبه يساغ الشجا ويجلي الأسى أبو عبد الله السيد المكي بن عيسى...» (الدحاوي، الرحلة: 140).

لا تعلم طبيعة العلوم التي أخذها الشيخ محمد المصطفى عن شيخه أبي عبد الله المكي بن عيسى، لكن من خلال ما حلاه به فأكيد أنه حَصَّلَ منه علم الفقه والفرائض وعلم اللغة كالنحوي وغيره.

ودائما من خلال ما أورده الشيخ محمد المصطفى يفهم أن الشيخ المكي ممن حج بيت الله الحرام والأكيد أنه التقى بعلماء الأمة وأخذ عنهم وأخذوا عنه، كما يفهم أن الشيخ المكي كان من المقربين من الباي محمد الكبير وأنه كان رسوله إلى الطلبة برباط وهران وهذا دليل على المكانة التي كان يحظى بها هذا الشيخ في بلاط الباي .

يظهر أن الشيخ المكي بن عيسى ممن تولوا منصب القضاء والإفتاء وهذا ما يصرح به الشيخ نفسه حين شهد على صحة نسب سيدي دحو حيث ختم تقيده بتحديد وظيفته وهي قاضي القلعة، ونص التقييد هو: «الذي تلقيناه من العدول وغيرهم وأن السيد عبد الرحمن بن علي بن عثمان هو المعبر عنه أوقتنا بسيدي دح وأنه شريف النسب حتى كدت أن أشهد شهادة بت وتحقيق بأن شهادة السماع قسمان لا تفيد التحقيق وتفيده وهذا من الثاني فمن أراد القطع بها فله ذلك كما هو مبسوط في موضعه وكتب مقيدا الشهادة شهادته محمد المكي بن عيسى قاضي قلعة بني راشد وفقه الله وأيده لما يحبه ويرضاه آمين» (انظر التعليق رقم 03)، يفهم من هذا النص أن الشيخ ممن كانت كلمتهم مسموعة وشهادتهم معتبرة موزونة وأنه تربطه علاقات وثيقة مع أسرة تلميذه الشيخ محمد المصطفى الدحاوي.

ـ الشيخ أبو طالب المازوني:

هو العالم المعمر أبو طالب محمد بن علي بن عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن شارف بن احمد بن علي بن عبد العزيز بن علي بمنصور بن محمد بن عمرو البلداوي وجدهم اسمه محمد بن عبد الله بن موسى بن مسعود بن يحي بن سليمان بن ابراهيم بن عيسى بن محمد بن احمد بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط (الكتاني، الرحلة: 105).
إن كان فيه اتفاق حول تاريخ وفاته سنة 1233هـ/1817م، إلا أن تاريخ ميلاده مختلف فيه فالبعض أشار أنه عاش أكثر من مئة سنة (الكتاني ج، ب.س: 67)، وقيل مئة وثلاثون سنة (الكتاني ع، 1986: 507)، و البعض جزم أنه عاش مائة وثلاثين سنة (بحري، 2013: 243)، وبالتالي يصعب تحديد تاريخ ميلاده،واكتفى البعض بأنه ولد أواخر المائة الحادية عشر هجري (بحري، 2013: 241).
تعلم الشيخ أبو طالب مبادئ العلم بمسقط رأسه وحفظ القران على يد والده العلامة على بن عبد الرحمن، كما أخذ علم الحديث عن كثير من علماء عصره وأشهرهم شيخ الجماعة بالجزائر القاضي المفتي أبي

عبد الله محمد بن جعدون والشيخ بن علي الشريف الزواوي (بحري، 2013: 242).

تصدى للتدريس بمازونة بعد وفاة والده سنة1189هـ/1775م طيلة أربع وأربعين سنة (الكتاني ع، الرحلة: 106)، حيث كان يدرس طلبته مختصر خليل شرح الخرشي والزرقاني والحديث الشريف. وقد اندهش الشيخ أبو راس الناصر المعسكري لكثرة مريديه وطلبته الذين كان يعتبرهم من العوام (الناصر، 1990: 46)، مسجلا اعتراضه على بعض التصرفات التي دفعته لكي يغادر حلقته يقول الشيخ أبو راس: «حضرت حلقة الشيخ محمد بن أبي طالب من نسل الشيخ عبد العزيز البلداوي ثلاثة أيام في الباب الأول من كتاب النكاح فأعرضت عنه» (الناصر، 1990: 46)، ولعل سبب إعراض الشيخ أبي راس عن حلقة الشيخ أبي طالب هو جمع هذا الأخير للمال عن طلبته والشيخ أبي راس معروف بفقره المدقع، يقول أبو راس: «وكان يعمل أسواقا حافلة بإجابة ما يقول على زعمه كافة، ويعدهم بالدعاء في ذكره والفريضة والنافلة فكل يدفع مالا للظفر بما أراد وطلب وارتاد، حتى يجمع من ذلك مالا وفيا» (الناصر، 1990: 46)، إضافة إلى ما كان يصله من أخبار على حد تعبيره فيها فلتات وهنات ومثالب لمثله آفات (الناصر، 1990: 47)، ولا شك أن النعرة السلفية الوهابية عند الشيخ أبي راس الناصر ظهرت في الجزائر قبل رحليه إلى المشرق (البوعبدلي، 1978: 31)، مع ضرورة وجوب التنبيه إلى أن ما عابه الشيخ أبو راس على الشيخ أبي طالب المازوني قد أثبت ما هو أخطر منه في كتابه الحاوي مما دفع بعض المحققين إلى اعتقاد أن بعض ما ورد في الحاوي منحول على أبي راس(بن حنفية، 2004: 140).

في حين أثنى عليه تلميذه محمد السنوسي فقال: «فمنهم وهو أجلهم وأكملهم الأشهر مهيع العلوم والمعارف أبو طالب سيدي محمد بن علي بن الشارف قرأت عليه...» (سعيدوني، 1984: 196)

لعل اشتغال الشيخ أبي طالب بالتدريس جعله غير معروف بالتأليف (سعد الله، 2011: 53)، والتي منها حاشيته على الخرشي، الذي يقع في مجلدين سماه درة الحواشي في حل ألفاظ الخرشي، جاء في بدايته: «يقول العبد الفقير المضطر إلى نعمة ربه القدير محمد بن علي بن عبد

الرحمن بن محمد المعروف بالشارف بن احمد بن علي بن عبد العزيز المازوني منشأ ودارا البلداوي نسبا، لما كان علم الفقه أفضل العلوم بعد كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ إذ به تعرف الأحكام ويتميز الحلال من الحرام وقد صنف فيه الأئمة الأعلام .... طلب مني بعض الإخوان في أن أضع عليه حاشية تبين مشكلاته فأجبتهم لذلك بعد الاستخارة لما قدرت عليه وربما تكلمت مع غيره ممن شرح وقصدت بذلك وجه الله العظيم» (الكتاني ع، الرحلة: 105)، كما ينسب له مؤلف في علم التوحيد (بحري، 2013: 243).

وصفه تلميذه محمد المصطفى الدحاوي فقال: «شيخنا الفقيه الصالح المدرس الناصح الصادق الأماني سيدي محمد بن أبي طالب المازوني» (الدحاوي، الرحلة: 111)، ووصفه مرة أخرى فقال: «فقيه صالح مدرس ناصح ملازم لدرس مختصر الإمام خليل في كل زمان ترد حياضه الطالبون من كل مكان وحصل به الانتفاع وسار فضله في هذه الإيالة في جميع الرباع قدح زناد علمه فأنار حلك الجهالة وشحنت فكر فهمه ففتح أقفاله فما من طالب علم في هذه الناحية إلا حضر درسه ودخل مجلسه واقتبس قبسه فلا يختلف في فضله اثنان ولا ينكر نفعه إنسان» (الدحاوي، الرحلة: 120)، ووصفة مرة ثالثة فقال: «الفقيه الصالح المدرس الناجح أبو المواهب شيخنا سيدي محمد بن أبي طالب المازوني» (الدحاوي، الرحلة: 127).

من النقاط التي أثراها الشيخ محمد المصطفى عند ترجمة شيخه الرد على المعترضين على الشيخ أبي طالب حال عقده لسوقه المشهور وهو حالة روحية تصيب الشيخ فيجتمع حوله طلبته وعامة الناس وكل يسأله حاجته فيدعوا الله أن تقضى كل الحاجات مشيرا أن : «كثيرا من الفقهاء ينكر عليه هذا الحال ولكن لا يقدر أن يواجهه بسوق مقال إجلالا له وهيبة ويبث ذلك في الغيبة» (الدحاوي، الرحلة: 164)، فتصدى الشيخ الدحاوي للدفاع عن شيخه المازوني من باب الوفاء بالعهد قائلا: «وأنا عبد الله تعالى ممن انتفع بقراءته واحتمى بحمايته فحق على أن أوجه أقواله واستشهد له بما يوضح إشكاله» (الدحاوي، الرحلة: 164).

لقد لعب الشيخ أبو طالب المازوني دورا مهما في استتباب الأمن والتفاهم وتناغم جيش الطلبة برباط وهران وإليه كان المفزع في حال نشوب خلاف أو بوادر شقاق ويذكر محمد المصطفى أن الشيخ بوطالب المازوني بقي: «نحو أربعة أيام بلياليها لا يفتر عن البكاء ودموعه تسيل على النحور فإذا لامه أحد في فرط البكاء وانهمال أنوائه يقول كيف لا ابكي وطاعتنا رجعت معصية حتى ترانا نحاول قتل النفوس بغير حق وهذا أعظم بلية»، كما كان الشيخ يعقد مجالس للذكر والدعاء من أجل فتح وهران يقول محمد المصطفى الدحاوي: «وفي أواسط هذا الشهر ـ جمادي الثاني ـ اجتمعنا عند الشيخ محمد أبي طالب المذكور وقلنا له قد طال علينا هذا الرباط فادع لنا الله تعالى أن ييسر الأمور وما أشرت علينا به نقتفيه ودبر علينا في هذا الثغر وكيف العمل فيه...» (الدحاوي، الرحلة: 166). على أن الشيخ المازوني لم يكن وحده بل اصطحب معه أبناؤه ومنهم الشيخ هني الذي لعب هو الآخر أدوار مهمة في نشر واستتباب الهدوء داخل الرباط.

لا تعلم نوعية العلوم التي أخذها محمد المصطفى الدحاوي عن شيخ أبي طالب المازوني لكن الأكيد أنه أخذ عنه الفقه حيث المشهور عن الشيخ أنه كان يدرس مختصر خليل.

ـ الشيخ أبو راس الناصر المعسكري:

ومن مَدحِ الشيخ محمد المصطفى لشيخه أبي راس الناصر ما نقله هذا الأخير حين قال:» ومما مَدَح به العلامة الأبر الجهبذ الأشهر حائز رئاسة وهران وأم عسكر الأستاذ النحرير ذو الإتقان والتحرير المؤيد بالله أبو عبد الله سيدي محمد المصطفى بن عبد الله هذا التأليف ومؤلفه وهو شيخه أنجب الأكياس ذو النور فوق نور النبراس الشيخ محمد أبو راس أمننا وإياه من الشيطان الماكر الغادر الوسواس قدس الله روحه وأسكنه دار الفراديس أعلى بحبوحة وهو قوله:

لَيتَ شِعري هَل أَرَى مِن نَصِيرٍ ... مُنصِفٍ لِمَجدِ الكِرَامِ الأَفَاضِلِ
يُطنِبُ القَولَ فِي اِمتِدَّاحِ فَقِيهٍ ... لَاحَ نُورُهُ فِي سَمَاءِ الفَوَاضِلِ
أَبَا رَاسٍ لِلعُلَمَاءَ أَنتَ عِمَادٌ ... أَنتَ نَجمُ الْهدَي شِفَاءُ العَرَاقِلِ
لَم تَزَل عَاضِدَ الفِقهِ مُنذُ زَمَانٍ ... كَكَوكَبِ سَعدِ مِنهُ حِينَ تُنَاضِلُ
فَتَنَيتَ عِنَانَ نُصحِكَ لِلنَّحوِ ... وَفِيهِ شَفَيتَ كُلَ غَلاَئِلِ

وَرَقَيتَ مِنَ الَحدِيثِ مَنَارًا قَصُرَت عَنهُ هِمَةُ المُتَطَاوِلِ
فَإنتَضَيتَ يَمَانِيًا كَوَمِيض فَلَقَ الصُبحَ عَن شُرُوقِ الدَّلَائِلِ
إن هَذَا لَشَيءٌ مِنكَ عُجَابٌ فَكَيفَ رَكِبتَ دَلِيلَ الدَلَائِلِ
فَلَازِلتَ مِن الخَلِيقَةِ تُدعَي قَوَّالَ حَقٍ دَامِغًا لِلأَبَاطِيلِ

(الناصر،1990: 72-73)

3- مكانته العلمية وطلبته:

لقد بلغ الشيخ محمد المصطفى مكانة علمية أهلته ليكون محل تقدير كل من السلطة وأقرانه من العلماء، ولا أدل على ذلك من تقريب الباي محمد الكبير له، وما قاله الشيخ أبو راس الناصر في حقه حين وصفه فقال: «كبير العلماء العالمين والجهابذة الفاضلين الذي لا يتحرك إلا بقلب حاضر ولسان ذاخر عظيم القدر رفيع الذكر العالم الأصفي والتقي الأضفي...» (الناصر، 1990: 72)، ووصفه مرة أخرى فقال: «وبالجملة إني لم أر من يخلفه في الغالب، فهو خاتمة ذوي التحقيق والتدقيق، يعجز عن أوصافه الحميدة كل نطيق مع عقل وديانة وعفاف وكفاف وصيانة» (الناصر، 1990: 72)، ووصفه الآغا بن عودة المزاري فقال: « العالم الجليل ، المتضمن الجميل ، العدل الماجد، البارع الفارد، الكاتب الفاخر، الناظم الناثر، ذو المعاني والإعراب، والفنون والآداب، والكرم والفضائل، والأخلاق والشمائل الجامع بين الحسب والنسب الأصيل والمعارف والتحصيل، الشريف الجميل، الذي هو أنجب من كل من حثّوا في طلب العلم ولحّوا، السيد مصطفى بن عبد الله بن دحّو ، مؤلف فتح وهران وجامع الجواهر الحسان» (المازاري، 2007: 249)، كما وصفه صاحب القول الأعم الشيخ الطيب بن مختار فقال: «الدراكة الأرضى الإمام المرتضى السيد المصطفى بن عبد الله» (بن بكار، 1961: 332).

ونظرا لهذه المكانة العلمية استطاع الشيخ محمد المصطفى أن يستقطب الطلبة الذين وصفهم الشيخ أبو راس بالنجباء (الناصر، 1990: 72)، لكن لم تشر المصادر إلى أسماء طلبته.

وأهم إشارة على مكانته العلمية هو تأثير الشيخ في الطلبة المشاركين في فتح وهران وتمكنه من جعل نصف هؤلاء الطلبة يميلون إليه ويساندونه، لما وقع له خلاف مع بعض أقاربه، حيث أشار ابن

سحنون أنه خلال حرب فتح وهران تم إبعاد الشيخ محمد المصطفى عن الرباط وأعيد إلى معسكر وسبب هذا الإبعاد هو خلاف وقع له داخل الرباط مع ابن عمه لم يصرح ابن سحنون باسمه، أدى هذا الخلاف إلى انقسام الطلبة بين الشيخ محمد المصطفى وابن عمه الأمر الذي كاد يؤدي إلى تشتيت صفوف الطلبة، وصار كل واحد منهما يراسل الباي ويشكو له تصرفات خصمه فقرر الباي إبعادهما عن الرباط، ولم يعد الشيخ محمد المصطفى إلا بعد تشفع وتوسط الطلبة لصالحه لدى الباي بطلب من أخيه (الراشدي، 2013: 252-253).

4- وظائفه ومشاركاته في أحداث عصره ووفاته:

أ - وظائفه ومشاركته في أجداث عصره:

كحال مختلف مراحل حياته فإن الوظائف التي تولاها السيد محمد المصطفى تبقى مجهولة إلا ما ورد عنه في بعض مؤلفاته من أنه كان يشغل منصب مفتى وقاضي محلة الباي محمد الكبير بتلمسان في حدود سنة 1189هـ/1775م مع وجوب التنبه إلا أن الباي محمد الكبير في هذه الفترة كان لا يزال يشغل وظيفة خليفة باي الغرب ولم يرتقي إلى وظيفة الباي إلا سنة 1779م (الدحاوي، الإكتفا: 06)، وأنه كان يستشيره ويطلب منه إصدار الفتاوى في النوازل التي تعرض عليه كما هو حال عند تأليفه لكتاب الإكتفاء يقول في هذا الصدد:» فبعث إلي رسوله في الحين أن أجب أمير المؤمنين فأسرعت لإجابته وبادرت لإمتثال إشارته فحين خيمة برسومه ووجدت روح نسيمه خاطبني ببديع كلامه وفصيح نظامه أنه يؤمل مني تأليف كتاب مختصر يحتوي على أنقال صحيحة في أخذ الجوائز من ذوي الملك والأمراء....(الدحاوي، الإكتفا: 09)، ثم من هذا التاريخ وإلى غاية سنة1205هـ/1790-1791م وتحرك جيوش الفتح نحو وهران لم تشر المصادر إلى مصير الشيخ محمد المصطفى. خلال هذا الحدث الهام عين من طرف الباي دائما ككاتب ومدون لمسار الفتح فكان كتابه الرحلة القمرية، لعين بعد فتح وهران قاضيا لها إلى غاية وفاته بداء الطاعون.

أما عن مشاركاته في مختلف الحروب التي خاضها الباي محمد فلا شك أنه كان من بين المستجيبين لنداء الجهاد، ومن ذلك مشاركته في رد

الهجومات الإسبانية على مدينة الجزائر يتحدث الشيخ عن تحرك الجيش نحو مدينة الجزائر قائلا: «فسار بنا يقدم عسكره وهو الشجاع المقدام الأسد الضرغام قاصدا تجاه العدو... (الدحاوي، الإكتفا: 12)، بقي محمد المصطفى مع جيش الباي من يوم 14 شعبان1189هـ/09أكتوبر 1775م، إلى غاية يوم 7 رمضان 1189هـ/31 أكتوبر 1775م، وهو تاريخ عودة الجيش إلى مدينة معسكر يقول الشيخ:» فكان يوم 7 رمضان يوم عيد وحق ذاك ليوم الإثنين إذ طالعه سعيد ركبنا عشيته المطايا مغربين وبقهر العدو والإياب فرحين..» (الدحاوي، الإكتفا: 12).

أما عن أهم حدث شارك فيه الشيخ محمد المصطفى هو فتح وهران والذي كما سلف يعتبر هو المدون الرسمي لأحداثه، انخرط الشيخ في صفوف جيش الطلبة لكن لم يلتحق به منذ أول يوم لانطلاقه الذي كان في بداية شهر ربيع الثاني 1205هـ /07 ديسمبر 1790م، حيث يقول :» ولما استهل هذا الشهر وبان صبح ليله وافتر أذن سيدنا الأمير أيده الله بالعون والتيسير أن ينفر الطلبة لرباط وهران...» (الدحاوي، الرحلة: 143)، إلا أنه التحق به يوم 8 جمادى الأولى 1205هـ الموافق لـ 12 جانفي1791م (انظر التعليق رقم 04)، يقول عن التحاقه بالمعسكر: «وفي ثامنه وهو اليوم الأول من السنة العجمية قدم على الطلبة مقيد هذه الرحلة القمرية من حضرة سيدنا الأمير...» (الدحاوي، الرحلة: 143)، لا يعلم سبب تأخر التحاق الشيخ بجيش الطلبة، لكن الأكيد أن التحاقه بهم تزامن مع غياب شيخ الطلبة الشيخ محمد بن عبد الله الجلالي الذي كان في أم عسكر.

ويفهم من خلال إحدى رسائل الباي إلى الطلبة أنه الشيخ محمد المصطفى كان من بين المسؤولين عليهم هذه الرسالة المؤرخة بيوم 28 جمادي الأولى 1205هـ/ 01 فبراير 1791م، نصها كما يلي: «الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله السيد محمد بن أبي طالب والسيد المصطفى بن عبد الله والسيد محمد بن أبي سيف وكافة الطلبة خصوصا الشيوخ السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ورضوانه العميم وتحياته وبعد فترونا بعثنا لكم سي عبد القادر بن البوري وبيده الدراهم اقسموها على الطلبة واجعلوا خمسة وعشرين طالبا في القسمة

وكل قسمة أعطوها خمسة عشرين ريالا بوجوهها مؤونة شهرهم هذا من غير القمح وقد فرنا لكل قسمة حملا من القمح نفقة شهر وما أشرتم لنا به في كتابكم على طحن القمح فاليوم أمر ذلك لكم فاعملوا شطارتكم في ذلك ونحن قد بلغنا لكم نفقة الشهر فاحتفظوا ما قدرتم ومن فرط فلا علينا فيه وما فضل من الدراهم يحفظه الشيخ المصطفى بن عبد الله تحت يده حتى يقدم الشيخ محمد بن عبد الله يضيفهم لما تحت يده سابقا حتى يصرفهم إن شاء الله هذا ما منا غليكم والله يصلح حالنا وحالكم بمنه آمين وكتب مسلما عليكم وطالبا صالح الدعاء منكم بأمر السيد محمد باي وفقه الله تعالى بمنه آمين» (الدحاوي، الرحلة: 149)، يفهم من نص هذه الرسالة أن الشيخ محمد المصطفى كان متولي للشؤون المالية للمعسكر في غياب الشيخ محمد بن عبد الله الجلالي، بل واستمر الأمر حتى بمحضر هذا الأخير حيث تكلف الشيخ المصطفى بأعباء تموين رباط وهران بما يحتاجه من المؤن خاصة الحم من الأسواق المجاورة وهذا عملا بتوجيهات الباي حيث أمرهم في أحدى رسائله فقال» لا بد أن تأتوا بجزارين من الأسواق القريبة لكم وادفعوا لهم ما يحتاجونه من الدراهم التي تحت يدكم يجلبون بها الأنعام ويذبحونها بين ظهرانيكم لينتفع الطلبة بشراء اللحم ويتيسر عليهم ما عسر عليهم...» (الدحاوي، الرحلة: 160)، فاستجاب لهذا الأمر الشيخ محمد المصطفى قال : «فركبت حينئذ أنا عبد الله تعالى في الحين إذ وافق دلك سوق الأربعاء عند قبيلة الدوائر... وتعاقد الشيخ محمد المصطفى مع مجموعة من الجزارين حتى يأتوا باللحم إلى رباط الطلبة» (الدحاوي، الرحلة: 160)، وعلى هامش حضور الشيخ هذا السوق عقد مجلس قضاء بطلب من الدوائر للنظر في الخصومات والظلامات « ففصلت بين الجميع بما أراني الله» (الدحاوي، الرحلة: 161).

ومن الأمور المهمة التي تولاها الشيخ محمد المصطفى هو مراسلة الباي محمد الكبير وإطلاعه على مجريات الأحداث أو طلب المزيد من الإمدادات.

ليعين بعد فتح وهران قاضيا عليها حيث وصفه الشيخ أبو راس فقال: «حائز الرياسة بوهران وأم عسكر» (الناصر، 1990: 73)، واستمر بهذا الوظيف إلى غاية وفاته.

ب وفاة الشيخ محمد المصطفى:

لعل الاستثناء الوحيد في التأريخ للشيخ محمد المصطفى هو تعرض بعض المصادر لذكر وفاته على سبيل الإجمال وليس بشكل دقيق، فتشير المصادر الغربية إلى أنه توفي إثر الطاعون الذي أصاب بايلك الغرب والمعروف بطاعون عثمان، هذا الطاعون الذي حدث حسب الشيخ العربي المشرفي سنة 1213هـ/1799- 1800م(فرقان،2014: 181)، أما المازاري فاكتفي بالقول أنه توفي بالطاعون الذي حدث زمن الباي عثمان دون أن يحدد تاريخ وقوع هذا الطاعون (المازاري، 2007: 301)، أما الشيخ أبو راس فقد صرح أنه توفي شابا دون أن يحدد سنة وفاته حيث قال: «حتى توفي في حالة الشبيبة» (الناصر، 1990: 72).

وقد علل صاحب كتاب إتمام الوطر الشيخ محمد الزقاي بأن سبب موت الشيخ محمد المصطفى بداء الشهدة على حد تعبيره وهو داء الطاعون، موقفه من الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الله الزقاي التلمساني الذي اختلف معه كما تمت الإشارة إليه سابقا حول قضية حكم أخذ الأعطيات والجوائز من الملوك وأن الشيخ محمد المصطفى كان يوغر قلب الباي عثمان ضد الشيخ الزقاي ويشوه صورته لديه فعقد الباي مجلس مناظرة انتصر فيه الشيخ الزقاي على خصومه وعلى حد تعبير صاحب الكتاب دائما فإن الله سبحانه وتعالى انتقم من خصومه « لاسيما القاضي مصطفى بن دحو الذي جهل قدره وتعدى طوره وبسط في الإذاية باعه وشبره وتولى من ذلك الأمر كبره فقد حاق به سيء مكره وعاجله الله بقهره فأخذه داء الشهدة وبيع بيع البراءة بغير عهدة فلم يلبث إلا يسرا من الأيام حتى تجرع كأس الحِمام بعد مقاساة الآلام العظام...» (الزقاي، 2011: 65-66)، هذا النص وعلى ما تضمنه من كلام يرفضه العقل قبل الدين فمهما بلغت الخلافات وجب على المسلم أن يتعفف عن الخوض في أعراض الناس والتشفي في موتهم فإن كان سبب موت الشيخ محمد المصطفى بداء الطاعون هو الخلاف الذي وقع بينه وبين الشيخ الزقاي فما ذنب كل أولئك الذين ماتوا بسبب هذا الطاعون خاصة وأن مصادرنا تشير أن عدد كبير من الناس قد مات من جراءه ، حيث تشير هذه الأخير أن هذا الطاعون عم الجزائر

كلها وكان يموت بسببه بمدينة الجزائر وحدها 300 شخص يوميا، ثم اجتاح هذا الطاعون المغرب الأقصى فنجم عنه موت حوالي ثلث سكان المغرب (فرقان، 2014: 181).

5- مؤلفاته:

أ ـ كتاب الإكتفا في حكم جوائز الأمراء والخلفاء أو الإكتفا في معاملة الخلفاء:

لا شك في نسبة هذا الكتاب لصاحبه خاصة وأنه صرح باسمه ضمنه حين قال:»الفقير غلى مولاه الغني عما سواه المصطفى بن عبد الله الشهير بنسب الشيخ الولي سيدي عبد الرحمن بن علي المعروف بمرضعة جده زرفة»، إلا أن ابن سحنون لم ينسبه له بل اكتف بالقول بأن الباي محمد : «أمر بعض الطلبة سالفا بجمع فتاوي العلماء في جوائز الملوك فجمع له في ذلك رسالة أثابه عليها بسبعين دينار»(الراشدي،2013: 154-155)، ما يرجح عدم اطلاعه على كتاب الإكتفا.

يعتبر أن هذا الكتاب هو أول عمل ألفه السيد محمد المصطفى، حيث أُلِفَ بأمر من الباي محمد الكبير، والذي حال دخوله مدينة تلمسان وتقسيمه الأعطيات والهبات على من كان معه في المحلة وعلى الأعيان والعلماء وأهل المدينة، بلغته أخبار أن احد فقهاءها أنكر هذا الفعل الصادر من الباي يقول محمد المصطفى: «وقد طرق سمعه أن بعض الحاسدين من الطلبة المرائيين ينكر الأخذ على من يأخذ ويقول أنه حرام ويشنع عليه ويتمشدق في الكلام» (الدحاوي، الإكتفا: 02)، ويظهر أن هذا الفقيه كان يصله حظه من الأعطيات إذ يقول الدحاوي: «ومع ذلك إذا أعطاه هو أخذ يفرح وسرور وبشر كل من لقيه أن سعيه مشكور وصار يثني عليه ويعظمه ويمدح ماكان بالأمس يذمه» (الدحاوي، الإكتفا: 07)، فلما علم الباي باعتراض هذا الفقيه أمر السيد محمد المصطفى بالرد عليه يقول في هذا الصدد: «خاطبني ببديع كلامه وفصيح نظامه أنه يؤمل مني تأليف كتاب مختصر يحتوي على أنقال صحيحة في أخذ الجوائز من ذوي الملك والأمراء» (الدحاوي، الإكتفا: 09).

من خلال نص المخطوط يتضح أنه كتب على مرحلتين المرحلة الأولى حيث شرع بتدوينه بتلمسان لكن اضطر إلى توقيف الكتابة نظر للهجوم الاسباني على مدينة الجزائر ومشاركة الباي بمحلته لرد هذا الهجوم يقول محمد المصطفى: «وأنا مستشرف على جمعه وكاشف عن ساق المجد في تصنيفه ووضعه إذ بلغنا أن أعداء الله الكافرين جهزوا جيوش عديدة لمحاربة المسلمين وكان قد شيطانهم بجنده المخذول وحزبه المفلول مدينة الجزائر» (الدحاوي، الإكتفا: 10)، فلما وضعت الحرب أوزارها وعاد جيش الباي إلى مدينة معسكر ندبه من جديد لإنهاء تأليفه حيث يقول: «ولما نزلنا عن صهوات الخيول وقدمنا الأقدام للدخول قال لسان حاله ولازم مقاله هل ضاهت عدتنا عدة عرقوب أو بقية حاجة في نفس يعقوب فقلت حاش لله وكلا بل الثانية أحق بجوابك وأولى فنهضت مهرولا وعدت لإتمام ما شرعته» (الدحاوي، الإكتفا: 14)، وكان الفراغ من تأليفه حسب ما هو مذكور في آخر المخطوط صبيحة الثلاثاء التي هي السدس السادس من الخمس الرابع من شهر الله المعظم المحرم مفتح سنة 1199هـ أي يوم 24 محرم 1199هـ/06 ديسمبر 1784م(الدحاوي، الإكتفا: 117).

جاء هذا الكتاب في مقدمة و أربعة فصول وخاتمة، أما المقدمة فاحتوت على مادة تاريخية هامة، بدأها باستهلال أدبي بارع جاء فيها: «الحمد لله الذي أطلع على ملك الجهل شمس اليقين وصفى بواطن العلماء من الضلالة فكانوا هادين ومهتدين وصفى ظواهرهم بنور التعظيم فسنوا سنن المرسلين، جعلهم أمناء على هذه الأمة وحملاء الدين ينقون عنه تحريف الضالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين...» (الدحاوي، الإكتفا: 01)، استهلال حدد فيه صاحبه مهمة العلماء ودورهم في توجيه العامة وخطورة ما ينجر عن انحرافهم، ثم أشاد مطولا بالباي محمد ونوه بخصاله ومكانته العلمية موردا قصيدته في مدحه والتي نصها:

ثم تحدث مطولا عن مشاركة الباي محمد في رد العدوان الإسباني على مدينة الجزائر المحروسة وكيف جهز جيشه مؤرخا لهذه المعركة منذ انطلاق جيش الباي من تلمسان في 14 شعبان 1198هـ، إلى غاية إعطاء الباي الإذن للجيش بالعودة إلى مدينة معسكر يوم 7 رمضان

1189هـ، وذكر في مقدمته السجال العلمي الذي وقع بين الباي محمد وبين علماء محلته حول تحديد المسافة بين مدينة معسكر ومدينة غليزان وهل يجوز قصر الصلاة خلالها فكان الباي يرى أن المسافة مسافة قصر أما المخالفون له فكانوا يرون أن الصلاة لا تقصر لكون المسافة غير معتبرة فعين الباي رجلين قاما بقياس المسافة بين المدينتين فظهر أنها تزيد على مسافة القصر ب19 ميل ونصف ويشير محمد المصطفى أن الباي هو أول من أحدث هذا الأمر إذ يقول: «وقد كانت المسلمون قبل ظهور هذه السنة في شطط وخلاف وخبط إذ لم يكن في إيالته موضع محدود يرجع إليه أو يقاس عند الارتياب عليه فلأجل ذلك لا تجد أحد يغتنم سنة القصر إلا إذا سار نحو المسافتين» (الدحاوي، الإكتفا: 11-12).

ثم شرع في المطلوب حيث تحدث في الفصل الأول عن حكم أخذ الجوائز والأعطيات من الملوك والأمراء أما في الفصل الثاني فقد تحدث عن حكم التصرف الحكام في أموال الوقف أما الفصل الثالث فتحدث فيه عن حكم أخذ الأعطيات من الحكام الذين علم أن مالهم حرام أما الفصل الرابع فخصصه للحديث عن موارد أموال الدولة وطريقة استعمالها وتوزيعها وتوزيع الغنائم، أما الخاتمة فتطرق فيها لقضية شروط الإمام وحكم من خرج عنه لعذر أو لغير عذر، مستشهدا بأقوال العلماء وفقهاء المذهب، ناقلا لنصوصهم بالحرف دون تصرف وكان عمدت نقوله ثلاث كتب:

- كتاب التقسي والتبيين في حكم أموال الظلمة والمستغرقين لصاحبه الذي وصفه محمد المصطفى فقال:» عمدة النقل ورئيس العلماء في المعقول والمنقول أبو زكرياء يحي بن محمد بن الوليد الشلبي المعروف بابن الأزرق
- كتاب المعيار المعرب للونشريسي الذي نقل منه فتاوي عديدة.
- كتاب الدرر المكنونة للمازوني نقله منه كذلك بعض الفتاوي.

كما اعتمد كتب أخرى أهمها حاشية عبد الباقي على خليل وحاشية البناني على الزرقاني وشرح لامية الزقاق للشيخ ميارة، وأغلب نقوله عن فقهاء المالكية وان استشهد بغيرهم كنقله من كتاب اللمع للشيخ أبي

المعالي وكتاب شفاء الغليل للإمام الحجة الغزالي وكتاب شرح المقامات لأبي العباس القيسي.

أما عن منهجه في تأليف هذا الكتاب فقد صرح به حين قال: «وقد كنت نقلت كلام الأئمة بلفظه إذ من الأمانة نسبة القول لقائله بحروفه وفرضه» (الدحاوي، الإكتفا: 103)، لكن لم يكتفي بمجرد سرد آراء العلماء والفقهاء بل أبدى رأيه معبرا عنه بقوله: « قلت: ومن ذلك رده على ابن رشد حين حرم التعامل وأخذ أعطيات الحاكم الذي عرف أن ماله أصله من حرام قال: قلت وقل ابن رشد والقول بمنع معاملته أصح خلاف المشهور بل المشهور جواز معاملته كما صرح به الشيخ علي الأجهوري، وكذلك أعلن رأيه صراحة في مسألة الخروج على الحاكم الظالم الفاسق الجائر فقال: قلت لا يجوز الخروج عن الإمام لجوره».

تكمن أهمية هذا الكتاب في إعطائنا صورة عن علاقة العلماء بالسلطة الحاكمة بين من يَسبَحُ في فلكها ويُسَبحُ بحمدها وبين من يرفض حتى أعطياتها وهباتها، ولعل أشهر عالم عرف بعدم قبوله لما كان يوزعه الدايات والبايات على العلماء والفقهاء الشيخ عبد القادر المشرفي، هذا الرفض يعكس تشنج العلاقات بين بعض العلماء والسلطة الحاكمة ونفور هؤلاء العلماء من كل ما له صلة بالسلطة، كما يعكس هذا الكتاب الخلافات الفقيهة بين فقهاء تلمسان وفقهاء معسكر وتدخل السلطة من أجل ترجيح كفة جهة على الجهة الأخرى، كما احتوي هذا الكتاب على مادة تاريخية هامة لا نجدها في غيرها من المصادر خاصة ما تعلق بمشاركة الباي محمد في رد الهجوم الاسباني على مدينة الجزائر وكذا قضية تحديد المسافات بين المدن.

كما يعكس هذا الكتاب الشخصية الفقهية للسيد محمد المصطفى وقوة إطلاعه على أمهات كتب المذهب المالكي وأشهر مدوناته الفقيهة ومدى براعته العلمية من خلال حسن انتقاء النصوص التي تخدم موضوعه وترجيحه بينها مبرزا أرائه المستمدة من المذهب. ونظرا لأهمية هذا الكتاب قام السيد أرنيس مارسي بتلخيصه وترجمته ونشره في مجلة روكي القسنطينية (بسكر، 2013: 356).

وقد اعتبر مارسي هذا الكتاب كرد فعل من طرف الباي محمد ضد خصومه السياسيين الذين اعتبروا حروبه ضد القبائل ظلم وجور، وبالتالي أرادوا استغلال هذه الفرصة وتشويه صورته بهدف الإطاحة بحكمه وعزله (بلبروات، 2001-2002: 233)، وحقيقة هذا الكتاب هو دفاع عن السلطة بأدلة دينية ومحاولة لتبرير بعض ما يصدر عنها من الأفعال التي تثير العامة باعتبارها نوعا من أنواع الاستبداد، ويظهر هذا جليا من خلال موقف الشيخ محمد المصطفى الذي أعلن صراحة فيما يخص مسألة الخروج على الحاكم الظالم الفاسق بقوله: «قلت لا يجوز الخروج عن الإمام لجوره» (الدحاوي، الإكتفا: 101)، وقوله ناقلا عمن سبقه من الفقهاء: « كل من ولي المسلمين عن رضا أو غلبة من بر أو فاجر فلا يخرج عليه سواء جار أو عدل ويغزى معه العدو ويحج البيت وتصلي خلفه الجمعة» (الدحاوي، الإكتفا: 101).

ب ـ الرحلة القمرية في السيرة المحمدية:

يعتبر هذا الكتاب من أشهر مؤلفات الشيخ محمد المصطفى الذي ألفه بأمر ولي نعمته الباي محمد الكبير حيث قال: « فإن أولى ما اقتني من المحامد وأحرى ما سعى في تحصيله كل ساع وحافد إجابة ولي الأمر بنهل المجهود في تحصيل موجب المالك المعبود بامتثال أمره اللازم الفرض إذ طاعته كما قيل من طاعة الله بعض ..» (الدحاوي، الرحلة: 01).

قسم الكتاب إلى مقدمة وأربعة فصول وخاتمة.

تطرق رحمه الله في الفصل الأول إلى الحديث عن فضل الجهاد ومحاربة العدو مستشهدا بالآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التي تحث وترغب في الجهاد مشيرا إلى فضائل الجهاد ومراتب الشهداء.

أما الفصل الثاني فخصصه للحديث عن أسباب فتح مدينة وهران حيث جعل حدوث الزلزال الذي أصاب المدينة قبل الفتح أهم سبب لفتحها وهذا بتاريخ ليلة السبت 29 من المحرم المفتح سنة 1205هـ/07 نوفمبر 1790م، متحدثا عن مدى الزلزال الذي وصل أثره حتى مدينة معسكر وتتابع الاهتزازات التي زادت من إضعاف حالة الحامية

الاسبانية بمدينة وهران، ومن الملفت أن الشيخ تطرق إلى أسباب حدوث الزلزال ولعل أغرب وذكرين سببين ذكرهما السبب الأول وهو أن الأرض على ظهر ثور تتسلط عليه ذبابة تدخل أنفه فيحرك رأسه فتهتز الأرض نقل هذا عن الشيخ الشبرخيتي في شرحه لمختصر خليل دون أن يعقب عليه، أما السبب الثاني وهو أن الزلزال ناجم عن تحريك ملك بأمر الله لعرق جبل ق هذا الجبل الذي تتوغل عروقه في أصل الأرض فإذا أراد الله أن يعذب قوما أمر الملك بتحريك العرق فتهتز الأرض من دون أن يعلق على كل هذه الروايات.

كما تحدث في هذا الفصل عن الرؤى التي رآها الصالحون وعموم الناس والتي بشرت بقرب فتح وهران مركزا على الرؤية التي رآها الباي محمد نفسه.

أما الفصل الثالث فخصصه لترجمة الباي محمد الكبير ومدحه جمع في هذا الفصل مختلف القصائد التي قيلت في هذا الباي وخص بالذكر قصيدة الشيخ أبو العباس احمد المقري التي مدح فيها الباي ومسجده ومدرسته كما ذكر قصيدته هو في مدح الباي محمد .

أما الفصل الرابع خصصه للتعريف بمدينة وهران منذ تأسيسها معتمدا على كتب المؤرخين والرحالة المسلمين القدماء، كما تطرق خلال هذا الفصل إلى المحاولات السابقة لفتح وهران كمحاولة الباي شعبان والداي محمد بكداش والباي مصطفى بوشلاغم، كما تطرق خلال هذا الفصل إلى قضية مقتل العروج أخ خير الدين بربروس، كما تحدث في هذا الفصل عن قصة سيدي الهواري مع الاحتلال الاسباني لوهران وأنه دعى عليها فتم الاحتلال وأردفها بقصة الشيخ احمد بن يوسف الملياني ودعاءه على هذه المدينة .

أما الخاتمة فتطرق فيها إلى الترغيب في سكنى وهران وفضل الرباط بها حيث تحدث مطولا عن فضل الربطات ، تحدث عن علماء وهران كالشيخ الهواري والشيخ ابراهيم التازي رحمها الله.

وبانتهاء الخاتمة يشرع في الحديث عن مسير فتح وهران حيث يبدأ بشهر صفر سنة 1205هـ / أكتوبر 1790م، وقبل الحديث عن مجريات الفتح خلال كل شهر يتطرق إلى حديث عن الأحداث التي

وقعت خلال حياة النبي ﷺ إلى غاية شهر رجب الفرد الذي به ينتهي الجزء الأول الموجود من الرحلة، ويليه الجزء الثاني المفقود.

حرص الشيخ محمد المصطفى على تدوين أحداث هذا الفتح يوم بيوم فكان عمله أهم مصدر لتتبع مسار وأحداث الفتح، ورغم أهمية هذا الكتاب إلى أنه لم يحض بعناية كافية حيث نشر مرة لكنه يحتاج إلى تحقيق جاد وصارم.

وقد تضمن هذا الجزء معلومات تاريخية هامة تتمثل في طريقة الاحتفال ببعض المناسبات كيوم المولد النبوي الشريف ويوم الناير، كما تضمن دفاع السيد محمد المصطفى عن مشروعية الاحتفال بالمولد النبوي الشريف ومشروعية رفع الصوت عند الذكر، كما تحدث عن الوضع الطبي في الرباطات ونوعية الرعاية الصحية التي كانت تقدم للمجاهدين.

أما منهجه في التأليف فقد صرح به حين قال: «معلما أن الرحلة لا تحتمل التبويب والتفصيل ولا يبرهن على صحة ذلك بدليل بادرت إذ فاتني ذلك أن نترجمها بشهور السنة القمرية، وموضع فصولها مشاهير الوقائع المحمدية، دائر فيها مع دوران فلك القمر متبركا في تعدادها بالنقباء الإثنا عشر فكل شهر ترجمان سيرته وسمسار صفقته في رحلته محليا لبات الشهور بما حضرني فيها من الآثار» (الدحاوي، الرحلة: 03).

أما عن تاريخ تدوينه فلم يذكره المؤلف لكن أشار ابن سحنون أنه أمر بتأليفه وهو مرابط برباط إيفري يقول دحاوي في هذا الصدد: «وكنت بحمد الله تعالى أسجل مراحله ومناهله ونهل شرابه ومعاليله لا على وجه التأليف بل على سبيل اللف والتصنيف»، لكنه لم ينهه نظرا لانشغاله بأمور الحرب، فلما تم الفتح عكف على إتمام هذا المؤلف (الراشدي، 2013: 155)، حيث استعان بما وجده في مكتبة الباي محمد الكبير يقول في هذا الشأن: «لما عزمت على الانطلاق وعقدت لتقييد الرحلة حبل النطاق دخلت إلى مجلسه الرحيب وتظللت بأفياء غصنه الرطيب فكان من سابغ فضله أن زودني من خزائن كتبه عمرها الله تعالى بطول عمره ودوام منصبه ما استظهر به على ما أنا بصدده فكان كالدليل المعين على السفر بزاده»، وفي هذا الصدد قال ابن

سحنون: «ثم اشتغل عن التقييد إلى أن حصل الفتح فهو الآن يتلقى الأخبار من أفواه الرواة ويجمعها من الرسائل وغيرها ويضمها إلى ما قيده حتى يصير المجموع إن شاء الله كتابا» (الراشدي، 2013:155) ، يفهم من هذا النص أن كتاب الرحلة القمرية وإلى غاية يوم الثلاثاء الخامس من رمضان سنة 1207هـ/15 أفريل 1793م، وهو تاريخ الإنهاء ابن سحنون لكتابه الثغر الجماني لم ينتهي الشيخ من كتابته .

ج ـ تلخيص الجمان من حياة الحيوان:

يعتبر كتاب تلخيص الجمان أخر كتاب ألفه الشيخ محمد المصطفى في حياته حيث فرغ منه كما صرح به أوائل رمضان 1213هـ/ 05 فبراير 1799م (الدحاوي، الجمان: 105).

من خلال ما ورد في مقدمة مخطوط تلخيص الجمان يمكن أن نستنتج على الأقل سببين أُلِفَ لأجلها هذا الكتاب وهما:

أ ـ السبب المباشر:

ويتمثل في طلب الباي عثمان من الشيخ محمد المصطفى تلخيص كتاب حياة الحيوان للدميري حيث كان يرى الشيخ المصطفى أن امتثال أمر الباي هو امتثال لأمر الله، يقول الشيخ محمد المصطفى: «فأشار علي أعز الله أنصاره ورقع درجته وأعلا مناره من إشارته تحمل بالرؤوس وكلمته تكتب في التواريخ والطروس بل إشارته غنم وأوامره حكم و امتثالها فرض وطاعته من طاعة الله بعض» (الدحاوي، الجمان: 04) فهذا النص واضح في أن تلخيص الجمان ألف بأمر من الباي عثمان.

ب ـ السبب الغير مباشر:

ويتمثل في حالة النفي والإبعاد السياسي إن صح التعبير التي تعرض له الشيخ محمد المصطفى قبيل وفاة الباي محمد الكبير ما عاد عليه بالضرر، فكان يتحين الفرص من أجل العودة إلى بلاط الحكم والتقرب من خليفة الباي محمد يقول واصفا حاله: «فقد عَضَت عَلَي الأيام بالنواجذ وعاملتني معاملة الساخط الواجد، كأن لها ثأرا على سلفي أو شوقا بها كلفي، إلى أن تقلص عني كل ظل وارف وتنكرت لي وجوه المعارف، واشتدت السبل والمذاهب، وعز المطلوب وضعف الطالب»، ويعلل الشيخ محمد المصطفى حاله هذه بابتعاده عن

خدمة الباي الجديد عثمان فيقول: «وسبب ذلك بعدي عن خدمة فريد الدهر وبكر عطارد وفرقد الملك الذي شهد بفضله الحميم والحاسد» (الدحاوي، الجمان: 02).

فكان طلب الباي عثمان من الشيخ مصطفى تلخيص كتاب الحيوان فرصة لعودته إلى سابق عهده وتقربه من سلطان زمانه يقول: «إلى أن تبسمت في وجه رجائي المطالب وتوجهت تلقاء مدين المآرب وانقشعت سحائب ذلك الغيم وغاضت غدران ذلك الضيم» (الدحاوي، الجمان: 3-4).

أما السبب الثالث لتأليف هذا الكتاب وهو الوقوف على الفوائد الطبية الواردة في كتاب حياة الحيوان للدميري وما فيه من رقى نافعة وحيل طبية مفيدة يقول الشيخ محمد المصطفى: «أن أجمع له خواص الحيوان من كتاب حياة الحيوان للحافظ الدميري مع ما إستطرده خلالها من الأدعية المأثورة والرقى المروية المبرورة على وجه الاختصار لا على معنى الإقتصار بحيث يجئ مجموعا خاليا عن الملل والإسهاب عاريا من الإخلال والإطناب» (الدحاوي، الجمان: 04)، ويقول: «وغير خفي على ذي العقل السليم والطبع القويم أن العلوم قسمان علم الأديان وعلم الأبدان والأول مشيد الأركان في كل أوان وثابت البنيان بحمد الله في كل زمان، والثاني قد نبذ ظهريا وجعل نسيا منسيا فأراد سيدنا الإمام أدام الله وجوده موفقا على الإسلام أن يشارك العلماء بهذا الوشل» (الدحاوي، الجمان: 07)، فيظهر من هذا النص أن من أسباب تأليف الشيخ محمد المصطفى لهذا التلخيص هو تراجع قيمة علم الطب وعدم الاهتمام به ومحاولته تدارك هذا النقص.

إن كان كتاب حياة الحيوان للدميري يمكن اعتباره كتابا فقهيا حديثيا تاريخيا طبيا، فإن تلخيص الجمان لمحمد المصطفى هو كتاب طبي بامتياز، حيث قام الشيخ بحذف كل ما له علاقة بالتاريخ أو الفقه أو الحديث واحتفظ لنا فقط بخواص ومنافع أجزاء الحيوانات، وبعض الإشارات التاريخية التي أوردها كما قال من باب التبرك ومن ذلك إيراده ترجمة للتابعي الشهير أويس القرني، وقصة عن الشيخ عبد القادر الجيلاني.

يعتبر كتاب تلخيص الجمان دليل طبي يمكن صاحبه من التعرف على بعض الأمراض المنتشرة في المنطقة وسبل مداواتها بطريقتين، طريقة عضوية تتمثل في استعمال أجزاء الحيوانات والانتفاع من خواصها، وطريقة روحية تتمثل في الرقية بالآيات القرآنية.

ويمكن حصر أهمية مخطوط تلخيص الجمان في النقاط التالية:

1- يعتبر هذا المخطوط الكتاب الوحيد الذي أنجز في عهد الباي عثمان بن محمد، والذي ضمنه صاحبه ترجمة لهذا الباي، هذه الترجمة وإن لم تستوفي عناصرها الأساسية من ذكر تاريخ مولده وتعينه بايا وأعماله، وغلب عليها الطابع الأدبي، إلا أنها تبقي ترجمة فريدة في باباها تعطينا صورة مغايرة تماما عما ورد عن هذا الباي في باقي المصادر المحلية.

2 - يعكس هذا المخطوط صورة الواقع الثقافي خلال عهد الباي عثمان، والذي يمكن القول أنه امتداد واستمرارية لما بدأه والده الباي محمد الكبير، حيث يلاحظ اهتمام الباي عثمان بالكتب مطالعة ومناقشة مع علماء بلاطه،وطلبه منهم تلخيص هذه الكتب فاتحا لهم خزانة كتبه العامرة حتى يستفيدوا منها وينتفعوا بما تحويه من النفائس التي قد يتعذر عليهم الحصول عليها.

3- يمثل هذا المخطوط تتمة مشروع الباي محمد الكبير الصحي حيث أن هذا الأخير عرف باهتمامه بهذا النوع من التأليف ومن ذلك أمره للشيخ ابن سحنون بجمع طب القاموس فقام هذا الأخير بامتثال أمر الباي وزاد على ما جاء في القاموس كلام الأطباء، ما أعجب الباي محمد وكافئ الشيخ ابن سحنون بخمسين سلطاني (الراشدي، 2013: 155).

3- يعتبر أخر مؤلف أنجزه الشيخ محمد المصطفى الدحاوي أبان فيه عن جانب مهم من شخصيته العلمية وهو اهتمامه بالطب، هذا الاهتمام الذي تجسد قبل ذلك في كتابه الرحلة القمرية حيث روى لنا مأساة بعض الطلبة الذين أصيبوا في بعض المعارك مع شبه طبيب الذي يصفه الشيخ محمد المصطفى فيقول :» انظر أيدك الله تعالى ما أجسر هذا الظلوم وما أشد عداءه على حدود الحي القيوم»، يفهم من هذا النص أن الشيخ كان يرى في الطب مهنة مستقلة لا يمكن أن يقوم بها إلا من اكتسب خبرة طبية تأهله لذلك، وهذا ما صرح به في تلخيص

الجمان حين قال: «وغير خفي على ذي العقل السليم والطبع القويم أن العلوم قسمان علم الأديان وعلم الأبدان والأول مشيد الأركان في كل أوان وثابت البنيان بحمد الله في كل زمان، والثاني قد نبذ ظهريا وجعل نسيا منسيا»(الدحاوي،الجمان: 07)، وأكده قبل ذلك في كتابه الرحلة القمرية حين قال:» إذ الطب علم من العلوم بل قالوا علم الأبدان مقدم على علم الأديان وجاهل الطب يضمن موجب فعله بإجماع» (الدحاوي، الرحلة: 129).

4- يمكن اعتبار كتاب تلخيص الجمان لمحمد المصطفى نوع من أنواع التواصل بين المشرق والمغرب الإسلامي فكتاب حياة الحيوان كتاب مشرقي كان له أثر كبير لدى علماء المغرب الإسلامي.

5- يدخل هذا المخطوط ضمن تأليف واشتغال علماء الجزائر بالعلوم العقلية، وهو علم الحيوان الذي عرفه حاجي خليفة فقال: « هو علم يبحث عن أحوال خواص أنواع الحيوانات وعجائبها ومنافعها ومضارها وموضوعه جنس الحيوان البري والبحري والماشي والزاحف والطائر وغير ذلك، والغرض منه التداوي والانتفاع بالحيوانات والاحتماء عن مضارها والوقوف على عجائب أحوالها وغرائب أفعالها...» (حجي، ب.س: 690).

د شعره:

لقد ترك الشيخ محمد المصطفى قصائد عديدة تعكس مدى براعة الرجل في النظم وإتقانه للغة العربية وآدابها وعلومها وفنونها، تنوعت مضامين هذه القصائد بين المدح والثناء وبين الرثاء والبكاء وبين التحسر والندم وقد أثبت جلها في كتبه السابقة، كما أنه له قصائد قالها مقرضا لكتب أقرانه من المشايخ ومنها الأبيات التي قالها مقرضا لأحد كتب الشيخ أبي راس والتي تم نقلها سابقا.

والملاحظ أن الأسلوب الطاغي على شعر الشيخ محمد المصطفى هو أسلوب المدح، خاصة البايات الباي محمد الكبير الذي كان دائما يتحين الفرصة لمدحه والثناء عليه والإشادة بخصاله ومن ذلك مدحه أثناء رثاء الشيخ الطاهر بن حواء قائلا:

حتى الأمير الشهم سيد من علا منصة العلا أبو عثمان
طود المفاخر سيف كل معاند من إزدرى ملك بني ساسان

وآل جفنة والملوك بأسرهم به إزدهى ملك بني خاقان
حاز الفضائل في علو مقامة تستنزل الجوزاء والميزان
ذاك الأمير العبقري محمد شهم الملوك ومورد الضمآن
ليث الحروب تراه حلف صبابة يتنفس الصعداء بالأحزان

(الدحاوي، الرحلة: 139-140)

كما خص الباي عثمان خليفة الباي محمد الكبير بقصائد عديدة ولعله بالغ في مدح هذا الأخير وهو الأسلوب الغالب عليه في كل أشعاره.

الخاتمة:

إن لم يكن الشيخ محمد المصطفى الدحاوي أكثر أهل زمانه تأليفا، حيث يمكن حصر مؤلفاته على أصابع اليد الواحدة، إلا أن كتاباته من الأهمية بمكان نظرا لما تحويه من معلومات تاريخية ومعطيات ثقافية وتعكس متغيرات اجتماعية لا نجدها في غيرها من المصادر المحلية.

كتابات يمكن أن نصفها بأنها كتابات سلطوية كتابات صدرت وأنجزت بتحفيز من السلطة الحاكمة، سلطة سعت من خلال تقربها من العلماء وجعلهم يسبحون في فلكها لتبرير بعض أفعالها كما هو الحال مع كتاب الإكتفا، أو تخليد ذكرها كما هو الحال مع كتاب الرحلة القمرية، أو نوع من الترف الفكري والاستمتاع الأدبي كما هو الحال مع تلخيص الجمان.

التعليقات:

تعليق رقم01: إجازة من الشيخ محمد بن عبد الله الجلالي للشيخ عبد القادر بن عبد الله الدحاوي، مخطوط مصور بمكتبة الشيخ الجيلالي مغوفل جدوية ولاية غليزان.

تعليق رقم 02: الأُرْبِيَّة أهل بيت الرجل وبنو عمه

تعليق رقم 03: وثيقة مخطوطة مصورة بمكتبتي

تعليق رقم 04: مقصوده هنا بالسنة العجمية شهر يناير لأنه تحدث بعد ذكر هذا التاريخ كيف أن الباي محمد أرسل للطلبة كميات من التين والجوز والزبيب والتمر احتفالا بالناير.

المراجع:

- بحري احمد، (2012-2013). حاضرة مازونة دراسة تاريخية وحضارية في العصر الحديث 1500_ 1900، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية جامعة وهران.
- بسكر محمد،(2013). أعلام الفكر الجزائري من خلال أثارهم المخطوطة والمطبوعة، طبعة خاصة، ج02، الجزائر: دار كردادة للنشر والتوزيع.
- بن بكار بلهاشمي،(1961). كتاب مجموع النسب والحسب وفضائل التاريخ والأدب، تلمسان: مطبعة ابن خلدون.
- بلبروات بن عتو،(2001-2002). الباي محمد الكبير ومشروعه الحضاري 1779-1797م، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير تخصص تاريخ حديث ومعاصر جامعة وهران، الجزائر.
- البوعبدلي المهدي،(1978). عبد الرحمن الأخضري وأطوار السلفية في الجزائر، مجلة الأصالة ، العدد 53 جانفي، ص ص 21-35
- حجي خليفة،(ب.س). كشاف الظنون عن أسماء الكتب والفنون، بغداد: منشورات مكتبة المثني.
- بن حنيفية عابدين،(2004). أبور راس الناصري المعسكري حياته وتصوفه من كتابه الحاوي. الجزائر: مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع
- الدحاوي محمد المصطفى. الرحلة القمرية في السيرة المحمدية، مخطوط مصور بالمكتبة الوطنية الجزائرية تحت رقم 3322
- الدحاوي محمد المصطفى. تلخيص الجمان من حياة الحيوان.، مخطوط مصور بالمكتبة الوطنية بالرباط تحت رقم ك 374
- الدحاوي محمد المصطفى. كتاب الإكتفا في حكم جوائز الأمراء والخلفاء.، مخطوط مصور بمكتبة خاصة
- الراشدي ابن سحنون، (2013). الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق المهدي البوعبدلي، ط خاصة، الجزائر: دار المعرفة الدولية.
- الزقاي محمد بن موسى، (2011). إتمام الوطر في التعريف بمن اشتهر في أوائل القرن الثالث عشر، تحقي ماحي كندوز، الجزائر: دار كردادة للنشر والتوزيع
- سعد الله أبو القاسم، (2011). تاريخ الجزائر الثقافي، طبعة خاصة، ج07، الجزائر: عالم المعرفة

- سعيدوني ناصر الدين والمهدي البوعبدلي، (1984). الجزائر في التاريخ العثماني، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر.
- الفرقان حسن، (2014). أدبيات الأوبئة في مغرب القرن 19 نموذج أقوال المطاعين في الطعن والطواعين للعربي المشرفي، المملكة المغربية: منشورات دار التوحيدي.
- الكتاني جعفر، (ب.س). الشرب المختصر والسر المنتظر من معين أهل القرن الثالث عشر، المملكة المغربية: الناشر الموسوعة الكتانية لتاريخ فاس 5.
- الكتاني عبد الحي. رحلة إلى الغرب الجزائري. مخطوط مصور بمكتبتي
- الكتاني عبد الحي، (1986). فهرس الفهارس والأثبات و معجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، اعتناء احسان عباس، ج01، بيروت: دار الغرب الإسلامي
- المازاري الآغا بن عودة، (2007). طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا، تحقيق يحي بوعزيز، المجلد 01، الجزائر: دار البصائر للنشر والتوزيع.
- المقري بدر، (2006). خطط مشرق المغرب، (الإصدار 01)، المملكة المغربية: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.
- الناصر أبو راس المعسكري، (1990). فتح الإله ومنته بالتحدث بفضل ربي ونعمته، تحقيق محمد بن عبد الكريم، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر.

للإحالة على هذا المقال :
ـ تقي الدين بوكعبر، دحو فغرور، (2019)، «الإسهامات العلمية الشيخ محمد المصطفى بن عبد الله الدحاوي المعسكري». **المواقف**، المجلد: 15 ، العدد:01، سبتمبر 2019، ص. ص 84- 111.